قصة فقيد الادب الكردي محرم محمد امين

ترجمة :
عبدالغني علي يحي

ولد القاص والاديب الكردي «محرّم محمد امين» بمدينة السليمانية في عام 1921 وانهى الدراسة الابتدائية والثانوية في المدينة نفسها ، ودرس في كلية الحقوق ببغداد لمدة 15 يوماً فقط ولم يتمكن من اكمال دراسته الجامعية بسبب من المشاكل التي كانت قائمة في الكلية المذكورة آنذاك ، وفي عام 1944 عين بوظيفة مستخدم في دائرة التموين بالسليمانية ، وبعد عام من العمل في دائرة التموين أصبح في عام 1945 موظفاً في مديرية المعارف هناك ، ثم أميناً للمكتبة العامة وفي المدينة نفسها ، ثم نقل الى قضاء الخالص بمحافظة ديالى وكان ذلك في عام 1948 وفي عام 1949 أصبح أميناً للمكتبة العامة في الخالص .

بعد ذلك بعدد من الاعوام ، عاد الى السليمانية وصار مستخدماً في دائرة مكافحة الملاريا بالسليمانية ، وفي عام 1957 أصبح موظفاً في بلدة السليمانية .

يعتبر الاديب الفقيد «محرم محمد أمين» واحداً من كتاب الادب المرموقين لدى المثقفين الاكراد والشعب الكردي ، ونال شهرته الادبية في الوسط الثقافي الكردي منذ الخمسينات عندما نشر العديد من القصص والموضوعات باللغة الكردية فقط رغم المامه باللغتين الانكليزية والعربية ايضاً ، وفي كتاباته ، لاسيما القصصية ، نرى الكاتب ملتصقاً بشكل ملحوظ بالاوساط الشعبية الكردية الكادحة ، ولاسيما الطبقات المسحوقة منها ، لذا جاءت اعماله متسمة بوضوح الرؤية الفكرية الى جانب البساطة والعمق ، وتعد قصته «سياحة في أزمر» احدى اجمل قصصه المنشورة على الاطلاق لما فيها من واقعية وتهكم لاذع ونقد للنظام الاجتماعي الذي كان يسود البلاد في الخمسينات وقبلها ، كما وتعكس بامانة حياة الفقراء والمعدمين وأيام الجوع والعوز التي

كانوا يعيشونها في الاعوام تلك، ووسط قسوة الحياة وواقع الانسان الكادح، الذي كان يتميز بالمرارة والكآبة، فان الكاتب يبرز قيماً واخلاق رفيعة خاصة بالطبقة الدنيا في المجتمع، كالتمسك بالصداقة واظهار الوفاء للصديق، أضف الى كل هذا تحبيب العمل الى النفوس، ونبذ الاستجداء والاساليب اللامشروعة في التكسب وضمان العيش، ناهيكم عن السخرية من البرجوازية والفئة الصغيرة منها بالذات.

هذا وقد رحل عنا قاصنا الكبير اثر نوبة قلبية بتاريخ 1980/7/23.

سياحة في ازمر

في زقاق ضيق وراء مطعم «الاوسطى كورون» ضمنا سوياً، مقعد من مقاعد مقهى «حاجي بارام». وتحت ضياء منبعث من مصباح في الزقاق، كنا نجيل البصر في قطعة من ورقة شاحبة، سلمنا إياها تواً عابر سبيل من معارفنا.

وعلى اي حال، فقد استوعبنا محتواها: يبشرنا صديقنا «حمه ويس» بالعودة الينا غداً. وبعد الانتهاء من قراءتها، رمق كلانا الآخر لبرهة لم ننبس خلالها بشيء. وكان صديقي، بين فينة واخرى، ينتزع من حصيرة المقعد قشة ينظف بها اسنانه، وكان يبدو، مثلي، مسرح الخيال، الى زمن يقارب الشهرين، عندما كنا ثلاثتنا، جالسين على هذا المقعد نفسه وفي ليلة كان لعابنا يسيل فيها لعشاء من التمن ومرق البامية، حيث كانت رائحته الهابة من المطعم في الطرف الآخر تثير فينا الشهية. ولكن آه من الفقر، قاتله الله وسود وجهه. وقد كان القمل في ثيابنا يسرح ويمرح. ولسوء الحظ لم نلق امرءاً يمد الينا يد الكرم، وكان «حمه ويس» على مقربة منا، مضطجعاً على بطنه، واضعاً ذقنه على راحتيه، يترنم مع نفسه بمقاطع اغنية هورامية لم نفهم من كلماتها شيئاً.

في مساء اليوم التالي، آب «حمه ويس» ومن بعيد، رأينا شاربيه الرفيعين، وكان يفتل من طرف أحدهما، واذ دنا منا، قال والبسمة على شفتيه:

ـ هيا، خروفاي، فانتما مساءً تحلان ضيفاً على اخيكما الاكبر في هذا المطعم.

وفي ذلك المساء، افرطنا في تناول الطعام، حتى لاحت بطوننا منتفخة كالطبل، ومنذ تلك الامسية، فانا افتقدنا «حمه ويس» ولم نعد نراه، وبعد أيام وردنا نبأ عن سجنه مدة شهرين لسرقته زوج بسطال بعود لجندي.

وقطع عليه صديقي، استرسالي في التخيلات وقال:

ـ لحمه ويس واجب علينا وحق كثير، لذا أرى بان ننظم له سفرة لمناسبة عودته، سيما ونحن الآن في يسر بفضل الباري تعالى.

قلت:

ـ مهه: إذا خصصنا ماتحويه جيوبنا له، فانه قليل غير كاف علماً بان فكرتك معقولة، ولكن في كل الاحوال دقق الصندوق! لترى كم فيه من النقود؟

وما هي إلا هنيهة، واذا بمهه، ينهض ويقول بتهكم:

ـ ثلاثة دنانير ونصف الدينار... ثلاثة دنانير ونصف الدينار..

وبأي حال، تمكنت من كبح تهكمه، ثم شرعنا نفكر بالمكان الذي نسافر اليه ونسيح فيه، وبعد القيل والقال، والكلام الكثار الذي استغرق الى منتصف الليل، تقرر ان نتوجه في يوم الجمعة بسيارة «اللوري» وبكل مانحمله من طعام وشراب الى أزمر[1].

لم يكن قد طرأ اي تبدل يذكر على «حمه ويس» فترة غيابه عنا. إذ كان كعادته يستعمل كلمة «خروفاي» وكان كعادته ايضاً يرتدي الثياب نفسها وغطاء الرأس «الكليته» التي كانت شبيهة وهي على رأسه، بغطاء الرأس لدى الاتراك، وكان كعادته ايضاً يداعب شاربيه الطويلين الرفيعين ويفتلهما، واللذين كادا لطولهما ان يمتدا الى ماوراء أذنيه، وفي سهل ويس[2] هبط على الارض من مؤخرة «اللوري» قال:

ـ ها.. كيف انتما، ياخروفاي؟ يزين لي الشيطان ان احمل عليكما وامرغكما في التراب، اولم يكن بمقدوركما أن تزوراني؟ الا زلتما في فندق بارام؟.

كان يسمي مقهى «حاجي بارام» التي كنا ننام في الليل على مقاعدها، فندقاً.

وقد سبق وان جاوبنا على جميع الاسئلة التي خطرت بباله في

الطريق الى ان وصلنا الى فندق بارام، ولم يكن التعب قد فارقنا بعد، حين وقف امامنا «مهه لرزانه» محركاً من وضع نطاقه، متأهباً وقال:

- حمه ويس .. لمناسبة عودتك، قررنا التوجه في يوم الجمعة الى أزمر .. وسنشرب العرق .. اعلم، بانه منذ رحيلك لم نـذق طعماً له ..

ولما سمع «حمه ويس» ذلك، انزل طرف شاربه، ثم فتله عدداً من المرات: «هم .. م .. م .. م ..» بعد ذلك قال:

- يبدو ان النقود الآن لديكم كثيرة مثل التبن، اليس كذلك ياخروفاي؟ يلوح لي بان تجارتكم رابحة؟!

قلت:

- بعون الله وقوة سواعدنا، فان الحظ ابتسم لنا من يوم ان فارقتنا فاني اعمل منظفاً للسيارات اغسلها، ولما كانت السيارات في ازدياد، فاني اغسل يومياً اربع الى خمس سيارات، بهذا اكسب شيئاً.

قال حمه ويس:

- فوالله، إنها لمهنة ممتازة! ولكن ماذا عن عمل خروفي الآخر، ماذا يفعل؟

وأوحى الى وجه مهه لرزانه متوسلاً لما أدنى بذقنه الطويل مني، أن ارد عليه نيابة عنه لكنه قال:

- إن عمل خروفك الآخر جيد ايضاً، انظر الى الزاوية في الداخل من خلال هذه النافذة، اترى هذا الطبق المطلي بالقار، الذي يحمل من حلوى تجذب الذباب.

في النهار احمل الطبق، فاذا وضعته بالقرب من انف اي كان، فانه يشمئز وتبدأ نفسه بالتقزز، ولكي لايصاب بالغثيان ويتقيء، يسارع ويعطيني عشرة فلوس للفور من غير ان يمد يده الى الطبق، واذا كان هنالك من لايشمئز ولا تتقزز نفسه، وهم قلة نسبتهم واحد بالمائة، فاني ماان اقول له: عزيزي، واذا به يلقي الي بالقطعة النقدية سريعاً ويمضي، هذا هو عملي، ويكفيني فخراً، باني لااستجدي ولا اتسول.

وربت «حمه ويس» على ظهرنا كلانا وقال:

- ليحيا خروفاي .. فانا ايضاً وجدت لنفسي عملاً مربحاً واتتني فكرته قبيل اطلاق سراحي بايام .. ففي منتصف كل ليلة اقف قبالة نادي الموظفين، اترصد وانتظر خروج المترنحين من رواده، وما ان يخرج الواحد منهم، واذا بي اسارع فاتبطاً ذراعه واوصله الى بيته، واني لقاء هذه الحسنة، ابحث، نيابة عنه في جيبه، لأنه بسبب من السكر يفقد القوة والحول، حتى في مد اليد الى الجيب. وبهذا فان لثلاثتنا الآن اعمالنا، فانا الموصل للموظفين السكارى الى بيوتهم بعد منتصف الليل، وانت تغسل السيارات وتنظفها، في حين يبيع مهه لرزانه الحلوى المغطاة بالذباب على طبق، اذاً بدءاً من الغد، كلا بعد غد، فقد تذكرت بانا نسيح في «أزمر» غداً، سيمضي كل واحد منا الى عمله.

في الصباح لما كان النهار، نهار جمعة، فقد ذهبنا ومعنا حوائجنا بسيارة لوري الى «أزمر» كان مقعد السيارة مريحاً ناعماً ووثيراً، حتى أن «مهه لرزانه» قال عندما جلس:

- اقسم برؤوس ثلاثتنا، انه مصنوع من ريش النعام.

ولما وصلنا الى «ازمر» شاهدنا رهطاً من الافندية يشربون الخمر عند حافة حوض ماء، ولحسن حظنا، عثرنا على موضع يسع لجلوس ثلاثتنا، وكان الموضع قد أعد وحجز خصيصاً من اجلنا. سلمنا على الافندية وجلسنا، ولمدة ربع الساعة كانت اذاننا نحن الثلاثة، منتصبة ان جاز التشبيه، متأهبة لتلقي الرد على سلامنا، ولكن لا من رد او صوت، فاضطر «حمه ويس» الى القول:

- حللتم اهلاً ووطأتم سهلاً، ومرحباً بنا، فالسنتنا لم تعقل بعد كي تعجز عن الترحيب بانفسنا.

وكان بينهم افندي قصير القامة ذو كرش على عينيه النظارة وقد وضع فوق ركبته منديلاً ابيض، كان يرنو نحونا باستنكار وتجهم ويحرك شفتيه دلالة الاستهزاء، بعد ذلك نادى على حارس «أزمر» وسر في اذنيه كلاماً لم نفهمه ثم شطر وجهه بدوره وللفور نحونا وقال: - ان هذا المكان محجوز، وثمة مكان آخر ورائع تحت ظلال تلك الشجرة.

وعبس وجه «حمه ويس» وتقطب جبينه، وأراد يستهزيء بهم، لكني حركت يدي في وجهه منددا وقلت:

- فلننهض، لأن كل الاماكن سواسية .. سواء هنا ام هناك ..

وعندما قمنا، لكي ننصرف، تقدم الحارس الينا بعدد من النصائح والارشادات، فدعانا الى التعقل والتمسك بالأخلاق

الفاضلة وعدم الخروج على الآداب العامة، ونعزف عن الشجار فيما بيننا وضد غيرنا ولا نفسد على بعضهم الراحة.

ومن تحت افياء الشجرة تلك، وضعنا القناني وانواع «المزة» وبعد حين دار الخمر برؤوسنا ولعب، فقال «مجة لرزانة» بعد ان احتسى شيئاً من الخمر ومسح شاربه بكمه:

- لاتشغلوا البال بالتافه من الامر، قسماً براسي، نحن الفائزون، فيها نحن احياء نرزق ونقتعد قمة «كويژه»[3] وما علينا الا التوكل على الله.

واعادت كلمات «مجه لرزانه» هذه بالوعي الى «حمه ويس» الذي كان واضعاً «كليتته» على ركبته، والذي احتسى بدوره قليلاً من الخمر ثم قال:

- اواثق مما تقوله من لغو ولقلقيات يا مجه لرزانة؟ متى صرت فيلفلوساً[4] ياخروفي؟ لا قال ولا قيل ولا من حكم ولا هم يحزنون، كل ماعليك هو ان تشرب، اشرب، حتى ترى الديك حماراً، وينمو لك جناحان لتحلق في هذا الفضاء كالطير، وللشرب اغراض عدة، اسمعاني ياخروفي، سأغني لكما مقاماً..

وكف «مجه لرزانه» عن الكلام امام صوت «حمه ويس» النشاز، فلزمنا الصمت وسرحنا النظر في الانحاء، وفجأة وقع بصرنا على منظر طريف، رأينا الافندية وقد اشتبكوا في معركة حامية، لافكاك منها، مع بعضهم بعضاً، مستخدمين الموجودات من الجمادات اسلحة في العراك.. كالكراسي التي كانت ترتفع وتنزل كالصاعقة على رؤوس وظهور بعضهم، وسمعنا ايضاً اصوات لكؤوس تنكسر واطباقاً ترتطم، وجاءت الشتائم البذيئة المتدفقة من الافواه لتلحن وترصع الضرب بجمع الايدي والركل بالاقدام والصفعات المدوية من ارتطام الاكف بالخدود، وساد الهرج، وهاج القوم وماجوا، اما نحن الثلاثة، فلم نعد نطيق، بعد الذي رأيناه، الاكتفاء بالتفرج، فهرعنا ثلاثتنا اليهم ننشد الفصل بينهم، وبعد جهد جهيد، وبعد نوال نصيبنا من الجمع والركل والصفعات التي تلقيناها عفواً، تمكنا من تفريقهم وفض النزاع بينهم، ولم نفارقهم الا عندما عادوا جميعاً الى اماكنهم، ورأينا من بين مارأينا، الافندي ذو الكرش يمسك بيده إطار نظارته وهي خالية من الزجاج، شاهدناه يبعث الينا بنظرة غاضبة ومن دون ان يتفوه باي كلمة، لكنه عاد بعد ذلك وانفجر كالرعد في وجوهنا، فكان ان اهتز وارتجف «مجه لرزانه» جراءه وارتبك.

- هلا انقلعتم من امام اعيننا.. ها نحن نلهو ونمزح، ولكن من العجيب ان يدس هؤلاء الغرباء انوفهم في شؤوننا ويتدخلوا فيما لايعنيهم! فوالله وبالله وتالله، ان هؤلاء المتسولين افسدوا علينا الجلسة واساؤا الى راحتنا هذا اليوم.. من انتم، وما هو موقعكم من الاعراب، واي شان لكم؟

عندما كان الافندي ذو الكرش يلقي بكلماته الغاضبة، كان حمه ويس يحملق ببرود في وجهه، ويفتل شاربيه، وحين سكت الافندي عن الكلام، تقدم منه «حمه ويس» وقال له بهدوء:

- خروفي، إفتح عينيك الغاضبة المحمرة جيداً، واعلم مع من تتكلم، فاصابع اليد ليست سوية ولا كل كروي جوز، فلافهمك من نحن ومن نكون! نحن لسنا متسولين! إن صديقي هذا منظف سيارات، وهذا الآخر، حامل الطبق المطلي بالقار من باعة الحلوى المستجدين، أما أنا، فلا بد ان القاك في ليلة ما وانت بأمس الحاجة إلي، إن عملي..

ولم أدع «حمه ويس» يمضي في قوله اكثر، فقد سحبته ورجعنا الى مكاننا، ولما جلسنا، اخرج «حمه ويس» قنينة عرق جديدة من جيبه وقال:

- هاكما اشربا، لقد نفد مشروبنا، وقد اخرجت هذه القنينة من تحت منضدتهم، ان هذا لايشكل سرقة، انما هو حق طبيعي لنا لقاء الفصل بينهم.

وعندما رأى «مجه لرزانه» القنينة، اشرقت اساريره، فهش وبش وقطع على «حمه ويس» كلامه حين هتف:

- استغفر الله، اي أحمق تسول له نفسه أن يعد القنينة مالاً مسروقاً، انا اعرفك «حمه ويس» انك رجل عاقل مجرب وحكيم، ومن هذا المنطلق سرقت القنينة منهم، كلا، استغفر الله، لقد خانتني العبارة، ها، لقد اخفيتها عنهم كي لاينغمسوا في الشرب اكثر ولكي لايقدموا على شرٍّ اكثر.. احبائي اشربوه هنيئاً، في صحتنا نحن الثلاثة اشربواولا تتوجسوا الخوف.

كان الليل مرخياً لسدوله عندما تناهى الى اسماعنا زعيق ابواق السيارات، تنادينا لتقلنا الى المدينة، وحين بارحنا مكاننا باتجاهها، رأينا حافة الحوض وقد خلت بالمرة من الناس باستثناء الافندي ذو الكرش، كان جالساً على الارض يبكي

بحرقة وقد وضع منديلاً فوق عينيه . وكان الحارس ينتصب قبالته ويتحدث معه ، ولما دنونا منهما اكثر ، التفت الينا الحارس وقال :

- جزاكم الله خيراً ، خذوا هذا الافندي معكم بعد ان نال منه السكر فنام في موضع لم يهتد اليه صحبه . وعندما صحا ، كان رفاقه قد رحلوا بعد ان تركوه وحيداً .

وخلال الكلام الذي صدر عن الحارس عاد شيء من الوعي الى الافندي ، ولما ازاح بالمنديل عن عينيه ورآنا تجهم وتوجس شراً ففرق اصابع يديه كما السرطان وصرخ :

- دعوني وشأني .. دعوني وشأني ، فاني لن أرجع مع هؤلاء ، لن ارجع ، انهم يقتلونني ، يسلبونني وامسك «حمه ويس» بذراعه وقال :

- لاخوف عليك ياخروفي ، لم نقتلك ؟ قم لنرجع ، قسماً برأسك ، سنرجع بك .

وبجهودنا نحن الثلاثة ، جعلنا الافندي يقف على قدميه ، وبصعوبه ومشقة ، وضعناه في مؤخرة السيارة واجلسناه بيني وبين «مجه لرزانه» ! فيما اقتعد «حمه ويس» المقعد الامامي ، وفي طريق العودة ، عندما كانت السيارة تتعثر بسبب رداءة الطريق ، كان الافندي ينتفض مذعوراً كما البرغوث ، وعندما كانت السيارة تقلل من سرعتها فجأة عند المنحنيات كان يفقد توازنه فيعلو ويهبط بشدة يصطدم رأسه خلال ذلك بسقف السيارة ، فيصرخ جراءه متألماً متوسلاً ، لقد ظن هذا البائس بانا نوقف السيارة لكي نؤذيه ونعذبه ، لذا فقد لاقينا الامرين بسبب من ظنونه وتصرفاته وحين دنونا من المدينة اكثر فاكثر ، لاح الافندي ميالاً الى الاعتدال في جلسته والصحو من سكرته . غير أن «مجه لرزانه» في المرحلة الاخيرة من العودة فقد السيطرة على نفسه ، فتقيء وزوع والقى بكل ماكان في بطنه من طعام وشراب على بنطال الافندي وثيابه ، وللحقيقة نقول ، ان افندينا لم يظهر اعتراضا او انزعاجاً على ما اصابه ، باستثناء قوله :

- لاتهتموا ، انه ليس بشيء ، عشتم ولتسلم رؤوسكم ، ولما وقفت السيارة امام فندق بارام قال «حمه ويس» .

- خروفاي ، حذاري من ان تتصرفوا على هواكم ! ها .. انت ، آت بهذه الصفيحة المملوءة بالماء وافرغها في السيارة .. عافرم .. لاتنسى ان تقطع أجرة التنظيف من كراء الرحلة . وقبض السائق النقود ووضعها في جيبه والابتسامة لاتفارق شفتيه ، ثم انطلق بسيارته بعيداً وغاب .

وكان الافندي على وشك الذهاب ، غير أن «حمه ويس» قبض على ذراعه واجلسه فوق المقعد وقال له :

- افندي ، اجلس الآن ، ولا تخجلنا ، فنحن نكرم الضيف ، ولن ندعك تذهب مالم تقبل ضيافتنا ، هلم مجه لرزانه .. اسرع .. وللفور وضع «مجه لرزانه» بالطبق المنفر المقزز أمامه ، وما ان وقع نظر الافندي على الطبق ، حتى كاد ان يزوع ويتقيء بعنف ويقذف باحشائه إلى الخارج . هزّ يديه وقال باشمئزاز :

- شكراً لكم .. لن آكل .. لن آكل ..

وتقدم «حمه ويس» منه قليلاً ، ووضع يده على كتفه وقال له :

- قسماً بهذا الرأس لابد ان تأكل منها قطعة ، افتح فمك ، هكذا ، اغمض عينيك .. عافرم .. بلعتها .. بلعتها . ها انها نزلت الى معدتك .

ونهض «حمه ويس» على قدميه وقال :

- والآن استعد ايها الافندي ، لنذهب ، وبالرغم من سعي الافندي للذهاب وحيداً وبمفرده ، إلا أن «حمه ويس» قبر سعيه وسرعان ما التصق به كالظل لايفارق صاحبه ، فتأبط ذراعه ومضى به . وبعد نصف ساعة عاد «حمه ويس» واخرج نصف دينار وقال :

- كان في جيبه «ورقة» من فئة الخمسة دنانير وهذا النصف دينار ، فتركت الخمسة دنانير له ترقد في جيبه ، أما هذا النصف دينار ، فان حصة «مجه لرزانه» منها هي عشرة فلوس ثمن قطعة الحلوى ، أما الباقي فانه أجرتي ، هاك خروفي ، ضع النصف دينار هذا في الصندوق ، لم اكن اعلم بانّا في هذه الليلة يمضي كل منا الى عمله ، والآن الى النوم ياخروفي ، فقد شرعت الديكة بالصياح .

الهوامش :

(1) ازمر : منطقة سياحية جميلة قريبة من مدينة السليمانية .

(2) سهل ويس : سهل يقع في منطقة قرداغ .

(3) گويژه : جبل يطل على السليمانية .

(4) فيلفلوسا : يقصد فيلسوفاً .